آثار التشويق في الدرس التربوي (قراءة في تأثير الإبانة والابتسامة)

محمذن بن أحمد بن المحبوب

المفتشية العامة للتعليم الثانوي والفني

انواكشوط–موريتانيا

إن تأنيس الأفئدة والقلوب مطلوب لاسيما بالنسبة للطلبة الذين أتعبهم الجد فهم بحاجة إلى مشوقات تزود شعورهم المنهك بالاجتهاد طرفة .لذلك تفنن المربون في أساليب البيان وطرائق الإفهام، معولين كثيرا على التشويق عبر الأقوال، حيث تتنوع العبارة وتتعدد الأسئلة والحوارات.

وفي هذا السياق يتنزل هذا المقال المقتضب الذي يسعى إلى إبراز عناصر التشويق بالأقوال بادئا في الأول باستنطاق العنوان ״**آثار التشويق في الدرس التربوي**״ فهذه الصياغة مؤلفة من أربع كلمات وردت عبر تركيبين نحويين أحدهما إضافي ״آثار التشويق״ والآخر نعتي ״الدرس التربوي״ وقد توسطت بينهما أداة الجر ״في״ التي جاءت محددة لطبيعة الموضوع ومجال اهتمامه فما المقصود بآثار التشويق ؟ وما معنى الدرس التربوي ؟ وهل يمكن أن نلتمس لظاهرة التشويق جذورا في الجهود التربوية التراثية ؟ وأخيرا كيف يستطيع المربون أن يحببوا إلى الطلبة القراءة والدرس ويربطوهم بالمثابرة والجد ؟

ذلك ما نسعى إلى الإجابة عنه عبر هذه الورقات موجزين القول فيه عبر ثلاثة محاور أولها سميناه : **محور المحددات الأولية**، وثانيهما أطلقنا عليه دور : **الكلمة في التشويق** وثالثهما وسميناه : **بأثر النادرة في الإنعاش**.

المحددات الأولية

وفي إطار هذه المحددات سنعمل على استنطاق وحدات العنوان لنتعرف بعد ذلك على أدبيات التشويق وأهميتها في عمل التدريس دون أن ننسى الإشارة إلى اختلاف مواقف المربين منها.

1 -استنطاق العنوان

وفي هذه النقطة سنفكك وحدات العنوان، فنقول إن التركيب الإضافي ״آثار التشويق״ يتألف من كلمتين ״آثار״، و ״التشويق״، فالآثار جمع أثر وهو لغة العلامة وبقية الشيء[1]؛ أما التشويق فهو لغة مصدر شوقه تشويقا هيج شوقه وجعله يزداد تعلقا بالأمر وارتباطا قال في اللسان : ״شوقني هاجني فتشوقت، ومنه شاقني حسنها يشوقني إذا هيج شوقي״ [2]. أما أصحاب المعجم الوسيط فيكتفون بالقول : إن التشويق ״مصدر شوقه إليه إذا أرغبه فيه وحببه إليه״[3].

أما في الاصطلاح فإن التشويق ״قوة تدفع الفرد لأن يقوم بسلوك قصد إشباع حاجة أو تحقيق هدف، أو هو مجموعة من القوى تدفع الفرد نحو هدف معين وتحدد تصرفاته״ [4]. وقد عرفه بعضهم بأنه ״استثارة ما في النفس من الميول المختلفة إلى الاهتمام بما يعرض عليها من أنواع المعارف والمهارات حتى تستفيد منها فائدة دائمة״ [5] .

وثمة عدة مصطلحات قد تطلق على التشويق منها ״التحفيز״ و ״الدافعية״ ويقابل هذه المصطلحات في اللغة الفرنسية كلمة (Motivation) والمقصود من التركيب الإضافي ״آثار التشويق״ جملة هو مختلف الأنشطة التربوية التي يقوم بها الأساتذة والمربون من أجل إنعاش الجو المعرفي داخل حجرة الدرس بغية جذب الطلاب إلى المادة وتحبيبها إليهم حتى يفهموها حق الفهم وينساقوا إليها رغما عن إرادتهم فيجد التلميذ نفسه منصاعا للدرس منساق إليه منجذبا نحوه، لأن الأستاذ قد أخذ بمجامع قلبه وامتلك عليه عقله وشعوره امتلاكا يحمله على التركيز والانتباه ويصرفه عن شرود الذهن والغفلة والذهول. أما التركيب النعتي ״ الدرس التربوي״ فمقصودنا منه عموما هو ذلك المجهود التعليمي الذي يسعى الأستاذ خلاله جادا إلى إفهام التلاميذ وجذبهم نحو الدرس وإكسابهم أكثر قدر ممكن من المعلومات في وقت قياسي وبطرق مختلفة.

[1] إبراهيم أنيس وجماعته ز المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، القاهرة،1/5 : 1972

[2] ابن منظور ز لسان العرب، دار صادر، دون تاريخ،10/192

[3] إبراهيم أنيس ز المعجم الوسيط، مرجع سابق2/520

[4] عبد اللطيف الفارابي وجماعته :معجم علوم التربية، دار الخطابي للطباعة والنشر، مطبعة النجاح الجديدة،19994 ، ص.177.

[5] الراجل بن أحمد سالم : دروس في التربية وعلم النفس، دفتر بحوزته(مخطوط)

2- أهمية التشويق وفاعليته

يحسن التنبيه هنا إلى أن التشويق ظاهرة تربوية بارزة لا غنى عنها في عالم التربية والتدريس لذلك عول عليها المربون كثيرا فقد نظر أصحاب معجم علوم التربية تنظيرا جادا فاعتبروها من أهم الوسائل التربوية التي تساعد التلميذ على اكتساب المعرفة وتبصره بالطرق والمواقف إذ تساهم في تنشيط الفعل التعليمي. وللتشويق وسائل عديدة تشمل السبورة والوثائق والأشرطة والخرائط والكتب والرسوم البيانية والجداول....فكل هذه الوسائل تيسر المعرفة وتسهل تقبلها وتلقيها وتحمل على فهما واستيعابها، لذلك رأى الخبراء أن تنشيط ذهن التلميذ من العمليات التربوية الأساسية لتحريك قابلية التعلم، وقد يهدف هذا التنشيط إلى إثارة الحوافز الداخلية للمتعلم من خلال حوافز خارجية حيث يكون التعلم لغايات أخرى كالرغبة في التفوق، أو الخوف من الفشل، أو الحرص على نيل الجوائز، أو الفوز بالتشجيعات والتهانئ[6].

وتكمن فاعلية التشويق غالبا في جملة من التقنيات التربوية الأساسية مثل ربط الدرس بالتجربة اليومية للتعلم ، والملائمة بين محتوى الدرس وبين النمو الذهني والوجداني للدارس وكذا عرض الدرس في قالب إشكالي يعتمد الأسلوب الإنشائي كالاستفهام والتمني والتعجب والنداء وغير ذلك مما يسمح بإشاعة جو من التنافس العلمي داخل القسم.

3- التشويق بين أنصاره وخصومه

إن الخبراء التربويين انقسموا في شأن التشويق فريقين : أولهما يقول بفائدته وأهميته وثانيهما يهون من قيمه ويتحدث عن تفاهته وسنعرض لهذين الموقفين في ما يلي :

أ- القائلون بأهميته

وهؤلاء يذهبون إلى أن التشويق يحبب إلى التلاميذ المدرسة والمدرسين ويكره إليهم الكسل والفتور والتهاون، فالتشويق في نظر هذه الطائفة أفضل وسيلة لجذب أذهان التلاميذ ولفت انتباههم إلى المادة الدراسية، فهو مدعاة الإتقان وقادح العبقرية والفهم، وجلب النظام

[6] عبداللطيف الفالرابي : معجم علوم التربية، مرجع سابق، ص.228.

والانضباط. وفي هذا السياق يلزم المربي أن يعرف ميول التلاميذ ليعمل على تحفيزها وإيقاظها، فالتلميذ غالبا ما يشتاق إلى كل ماله صله ببلده وأسرته أو شخصه، فارتباط مواضيع الدرس بالحياة اليومية يولد الرغبة لدى الدارس ويشده إلى الموضوع، فالتلميذ مثلا قد لا يلتفت إلى صادرات بلد من بلدان العالم بعيد عنه، غير أنه إذا علم أن هذه الصادرات موجودة في سوق قريته، أو علم أن دولته تجلبها أو تستهلكها أو أن أهله ينتفعون بها فإن تعلقه بها يزداد ويتعزز. وكذلك إذا علم أن معرفة العمليات الحسابية مفيدة عند شراء الألعاب والملابس والآلات المدرسية.

لذلك ركز كثير من خبراء التربية على ضرورة استخدام المشوقات فحثوا على بذل الجهد والطاقة في هذا الجانب مؤكدين على اعتماد المحفزات المباشرة كالمدح والثناء والوعد بالأجر العظيم ونيل الجوائز والتفوق على الأقران لأنها غالبا ما تحمل الطالب على الاجتهاد وتدفعه إلى العمل بجد ونشاط[7].

ب- المعارضون

وهذا الفريق على النقيض من سابقه يرى أن التشويق يضعف قوة ومقاومة التلميذ ويجعله يهرب من معضلات الحياة، ومن كل شيء غير شيق . والحياة بطبيعتها مليئة بالأمور الصعبة والجافة التي لابد من مواجهتها والقيام بها، فالإكثار من أساليب التشويق غالبا ما يسبب ضعف إرادة التلاميذ ويوهن من عزائمهم، هذا بالإضافة إلى أن المشوقات قد تصرف أذهان التلاميذ عن لب الدرس وعمقه، وما فيه من الحقائق الأساسية وبذلك تميت في الأطفال ملكة الإبداع والإدراك المعنوي، حتى لقد لوحظ أن بعض الأطفال اللذين تربوا على دراسة العمليات الحسابية عن طريق المشوقات عجزوا عن حلها دون استخدام هذه الوسائل[8].

وأكثر من ذلك فإن البعض يرى في اتخاذ التشويق نوعا من إشاعة روح الفرح والمرح داخل الجدران الدراسية وهو ما يفضي إلى الضحك الذي من شأنه أن يفقد المدرس بعض الهيبة، والدرس جانبا من جديته، فينحرف بذلك عن هدفه الأساسي الذي أنشئ من أجله.

[7] المرجع السابق ،ص.228.

[8] الراجل بن أحمد سالم : دروس في التربية وعلم النفس، مخطوط سابق.

والتشويق القائم على أسلوب المهازلة والمفاكهة كثيرا مما يؤدي إلى تحويل العلاقة العمودية القائمة بين المدرس وبين الدارس إلى علاقة أفقية يتكافآن في نطاقها تكافؤ القرين مع قرينه فيكون مآل العملية التربوية الخسران[9].

غير أن هذا الاعتراض المناهض للتشويق وجهت إليه جملة من الانتقادات لأنه يتنافى مع ما تجمع عليه الاتجاهات التربوية الجديدة من أن المعلم ليس أداة الإكراه والتطويع بل هو على العكس من ذلك كائن منشط يسهم بدور أساسي في العملية التربوية وفي هذا التوجه بالذات ينبغي للمعلم أن يضطلع داخل القسم بدور المنشط المنشئ للأوضاع الحافزة على المشاركة في الدرس وهو ما يستلزمه اعتماد أسلوب التشويق إلى أقصى حد ممكن[10].

دور الإبانة في التشويق

نشير هنا إلى أن للكلمة الطيبة أثرا بارزا في جذب الطالب ولفت انتباهه إلى الدرس. فالتشويق عبر الأقوال يعتبر ظاهرة بيانية أسلوبية ترتبط بحسن العبارة فبسحر البيان يتضح المعنى وينجلي الغامض، بل ربما أدى إلى قلب الحقائق فقد يصير الحصاة كالطور؛ ويرى الظلماء كالنور؛ وذلك أمر واضح يمكن أن يستشف من أبيات بن الرومي التي ضرب لنا من خلالها مثلا واضحا؛ فمدح العسل وذمه في آن واحد ففي جانب الترغيب والإغراء شوق الأفئدة إلى ذلك العذب المصفى وجعله شهدا مباركا وفي معرض التحذير والترهيب حذر النفوس من ذلك القذر الممجوج واعتبره قيئا نجسا.

وبذلك يكون قد اتخذ من هذا المشروب موقفين ضدين يقول [11] :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه — وإن ذممت تقل قيئ الزنابير

مدحا وذما وما غيرت من صفة — سحر البيان يرى الظلماء كالنور

[9] محمد صالح بن عمر :كيف نعلم العربية لغة حية، دار الخدمات العامة، تونس، ص.61.

[10] المرجع السابق، ص .61 .

[11] مقابلة مع الأستاذ محمد بن زين بن المحبوبي بتاريخ 19/09/2000 بنواكشوط.

ولنعرض الآن لتأثير الإبانة من خلال نقطتين أولاهما تعرض للتشويق القولي في التراث الإسلامي ؛ وثانيهما تناول العبارة المؤثرة وقيمها في الدرس المحضري.

أ- التشويق القولي في التراث الإسلامي

نشير هنا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كان يعلم الصحابة على طريقة السؤال والجواب ؛ فذلك أثبت في الذهن وأدعى للانتباه فقد اعتمد صلى الله عليه وسلم أساليب التشويق عمليا فكان يحاور صحابته رضي الله عنهم عبر هذه الآلية التربوية معولا في أحايين كثيرة على استخدام أداة الاستفتاح " ألا " التي تشي بدلالة تأثيرية تنبيهية وتحمل شحنة استفهامية تشويقية ؛ إذ توقظ ذهن المخاطب وتجمع فكره وتجعل قلبه يتوجه نحو الموضوع ويستعد لتلقي المعارف وتقبلها. فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعد رافع بن المعلي رضي الله عنه أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد فأخذ بيدي فلما أردنا أن نخرج قلت يا رسول الله قلت : ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قال :الحمد الله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته" [12].

فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث لم يقدم هذه المعلومات القرآنية للصحابي مباشرة وإنما استجمع فكره أولا واستنهض همته وأثار انتباهه عسى أن يتهيأ لتقبل المعارف، فلم يعلمه هذه المسألة ابتداء وإنما خاطبه قائلا " ألا أعلمك " "ليكون ذلك أدعى إلى تفريغ ذهنه لتقبلها وإقباله عليها بكليته" [13].

زد على ذلك ما في الأخذ باليد من الرأفة والرحمة والملاطفة والاقتراب من المتعلم .

وفي هذا السياق نذكر أن أصيل بن عبد الله الهذلي شوق النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه عائشة إلى بطاح مكة فقد وصفها لهما وصفا بليغا حيث ذكر ابن حجر العسقلاني في الإصابة " أن أصيلا قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فقالت له عائشة كيف تركت مكة؟

[12] محمد بن علا الصديقي : دليل الفالحين : دار الكتاب العربي، بيروت(د.ت.6/179)

[13] المرجع السابق، ص6/179.

قال تركتها حين اخضرت أجنابها وابيضت أباطحها، وأحجن ثمامها وأغذف إذخرها وأمشر سلمها " الحديث [14].

وفيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حسبك يا أصيل لا تحزنا". وفي رواية "ويها يا أصيل دع القلوب تقر" [15].

وفي الاستيعاب لابن عبد البر " أن عائشة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استمع إلى وصف أصيل لمكة أتسمع ما يقول أصيل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لا تشوقنا يا أصيل أو كلمة نحوها" [16].

وذكر أحمد البدوي الشنقيطي هذه الحادثة ضمن منظومة أنساب العرب مؤكدا أن أصيلا قد شوق رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه عائشة بأسلوبه المتميز وعباراته المؤثرة يقول[17] :

أصيل الشوق النبي مكته وزوجه بوصفه فأسكته

ب -أمثلة من التشويق في الدرس الشنقيطي

لقد كان الدرس الشنقيطي القديم يعول على التشويق القولي كثيرا فقد كان الشيخ يحظيه بن عبد الودود [18] يتبع في تدريسه منهاجا متميزا يقوم على توضيح العبارة واستجلاء المعنى فيضرب الأمثلة ويذكر التشبيهات البليغة، فقد كان أثناء تدريسه للجملة الاسمية ودخول النواسخ عليها يشبه المبتدأ والخبر بخيمة مضروبة تعتمد على ركيزتين إحداهما أمامية هي المبتدأ والأخرى خلفية هي الخبر فإذا دخلت الأفعال النواسخ هذه الخيمة كما يقول الشيخ فإنها تسقط الركيزة الأخيرة "الخبر" لتنصبه على أنه اسم لها. أما الحروف النواسخ فبدخولها

[14] أحجن ثمامها : أي خرجت حجنته، وهي التي خرجت من رأس العود، وأغذف إذخرها، صار كلون العداف وهو الغراب، وأمشر سلمها، صارت فيه المشرة وهي الخوص ونعومة الأغضان.

[15] ابن حجر :الإصابة في تمييز الصحابة،.1/54

[16] ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .الطبعة1،1328 ه،مصر.1/113 :

[17] هو أحمد بن أبي أحمد البدوي المجلسي(ت1209:ه)1793/–عالم نظامه، له نظم الغزوات ومنظومة في عمود النسب.

[18] مخطوط بحوزة الأستاذ محمد يحي بن سيد أحمد،ص.195.

على الجملة الاسمية تسقط الركيزة الأمامية " المبتدأ " لتنصبه على أنه اسم لها ويتم إسقاط الخيمة وإزالة رفعها مع دخول أفعال القلوب التي تزيل الركيزتين وتنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر وهكذا.

وفي تدريس هذا الشيخ لمختصر خليل في الفقه كان أيضا يوضح المعاني عبر أمثلة بديعة مستقاة من واقع الناس وحياتهم اليومية ففي شرحه لقول خليل في باب السهو "ولا يجبر ركوع أولاه بسجود ثانيته " [19] كان يسوق عبارة حسانية معبرة عن دلالة هذا الفرع الفقهي أحسن تعبير وهي : " اعجول خيم ما إحلب الوحدة أخرة " [20].

ومعنى كلام صاحب المختصر أنه لا يمكن لمن فاته ركوع من ركعة، وفاته أيضا سجود من ركعة أخرى أن يلفق من بين هاتين الركعتين الناقصتين ركعة صحيحة فيضم سجود الركعة المنسي ركوعها إلى الركعة المنسي سجودها كما أنه لا يمكن لأسرتين متجاورتين تملك كل واحدة منهما بقرات حلائب أن تتبادلا عملية الحلب عبر العجول فلو افترضنا ؟ مثلا –أن إحدى الأسر ضلت عجولها وحضرت بقراتها في حين أن الأخرى ضلت بقراتها وجاءت عجولها فلا يمكن للأولي أن تستدر بقراتها بعجول الثانية والعكس كذلك.

وعبر هذه الأمثلة البديعة تترسخ المعارف في الأذهان، وتتطبع المعلومات في الذاكرة فتتجلى صعاب المعاني أمام ناظر الفدم البليد، وتنكشف العويصات أمام صاحب الفهم السليم وقد نبه أحمد محمود "ممو" [21] بن عبد الحميد الجكني إلى أن الشيخ يحظيه كان يعتمد في تدريسه جملة من وسائل الإيضاح وطرائق التشويق . فكان يصوغ من العبارات ما يعذب ويسوغ مقدما المعنى البعيد في صورة القريب المحسوس حتى ليخيل إلى السامع أن عبارات هذا الشيخ سحر حلال وصور حية متحركة يقول [22] :

[19] هو الشيخ يحظيه بن عبد الودود الجكني نسبا مولدا ومنشأ كان شيخ محظرة متميزة لبث نصف قرن وهو يعلم الرجال ويكون الأجيال له مجموعة من التقليد والأمالي والأحكام.

[20] هذه العبارة حسانية والمعنى أن عجول أسرة ما لايمكن أن نستعين بها أسرة أخرى لكي تستدر بها بقوتها.

[21] هو محمد محمود(ممو)بن عبد الحميد الجكني1362–1312 (ه)عالم وشاعر ونحوي أخذ من يحظيه ومن عبد الودود، وأقام في محظرته عقدين من الزمن له أنظام وديوان شعري.

[22] محمد بن يحي بن سيد أحمد : حياة الشيخ يحظيه ومظرته(مخطوط.)

وكان في إقرائه يصوغ	عبارة لفهمهم تسوغ
يريهم المعنى أخا الطموس	مبرزا في صورة المحسوس
يضرب الأمثال التي تفهم	حتى كأنه لهم مجسم

ونجد الشيخ محمد عبد الرحمن بن فتى [23] يصرح ضمن أبيات له بروعة حصص يحظيه مشبها إلقاءه الدروس على الطلبة بإلقاء موسى عصاه على السحرة يقول :[24]

تقول نفسي إذا ما الجهل أرقني	ما ترتجيه بباب الحبر يحظيه
فالجهل داء عضال لا شفاء له	إلا السماع لهذا العلم من فيه
دروسه حين يلقيها كمثل عصا	موسى تلفق ما الأقوام تلقيه

ويصف أحد الباحثين المعاصرين طريقة إلقاء المختار بن المحبوب[25] متحدثا عن قدرته الفائقة على التبليغ والإفهام حيث تنقلب العويصات على يديه بيانا ووضوحا وتصبح الغوامض بفعل شروحه شمساء وضياء حسب تعبير تلميذه الذي يقول : " كأن أسلوبه البديع يجذب المريد إليه وكأنه يتتبع طيات قلبه ليبسطها أمام المعارف، وكأنه يرى نقاط الغموض فيتتبعها بالشرح والتوضيح والأمثلة ووسائل الإيضاح حتى تنطبع الحقائق في ذهنه " [26].

ويحدثنا محمد بن أشفغ عبد الله [27] عن روعة تدريس شيخه المرابط محمد سالم بن ألما [28] مشيرا إلى أن الطلبة يشتاقون إلى دروسه اشتياقا مشابها للحالة التي تصيب القرم المشتاق إلى نكهة اللحم وضراوته وللتعبير عن روعة تدريس الشيخ استخدم الرجل في أبياته أسلوبا شعبيا

[23] هو محمد عبدالرحمن بن فتى الشقروي أحد تلامذة يحظيه بن عبد الودود –توفي سنة1363 ه1941/م .

[24] مخطوط بمكتبة عبدالله السالم بن يحظيه رحمه الله.

[25] هو المختار بن المحبوبي اليدالي 1391–1307(ه)عالم فقيه له نظم في غريب القرآن ومنظوممة في حوادث السنة، وديوان شعلري محقق وكان شيخ محظرة .محمد يحي بن سيد أحمد : مجلة الوسيط، العدد5 السنة1996 ، ص.57.

[26] الراجل بن أحمد سالم : عرف الغوالي الطبية الهبوب في مناقب المختار المحبوب، مخطوط بحوزته.

[27] هو محمد بن اشفع عبدالله الأبهمي عالم وشاعر، أخذ عن المرابط محمد سالم بن ألما(ت 13335 ه)مخطوط بمكتبة عبدالله سالم بن يحظيه رحمه الله.

[28] هو المرابط محمد سالم بن لألما اليدالي1301 (ه1383–ه)عالم جليل إمام محظرة كبيرة وشيخ حضرة صوفية له عدة مؤلفات منها نظم ورقات إمام الحرمين ونظم الحقيقة والمجاز بالإضافة إلى ديوان شعري ومجموعة من الأنظام الفقهية واللغوية.

متداولا عبرت عنه الجملة الفعلية "يرى الحاضرون النار تضطرم" فاشتعال النار هو الغاية القصوى عندهم في كل شيئ في التدريس إلى أن تشتعل النار معناه : التمكن من المادة وجودة الإلقاء وأكثر من ذلك استحضر بيتا قديما ليعبر من خلاله عن تمكن أستاذه الكامل من تدريس الفقه وتفننه في ذلك مستخدما أسلوب التورية وهو ما عبرت عنه كلمة "خليل بن إسحاق "مؤلف المختصر الفقهي المشهور في المذهب المالكي، فقد اشتهر الكتاب عند القوم باسم المؤلف يقول:

في الفقه والنحو شيخي لا نظير له — وكل قرم إلى إقرائه قرم
فإن أتت "طرة" المختار يقرؤها — حتى يرى الحاضرون النار تضطرم
"وإن أتاه "خليل" يوم مسأله — يقول لا غائب مالي ولا حرم"
أنا الذي قلت هذا البيت لا ابن أبي — سلمى وشيخي به المعنى لا هرم

أثر الإبتسامة في التشويق

إن الترويج عن الأفئدة عنصر أساسي لا غنى عنه في عالم التربية والتدريس، ذلك أنه يخفف من هموم الحياة ويشد ارتباط الدارس إلى الموضوع .وفي أجوائه يعرف الفصل ظروفا ملائمة وانفتاحا وأريحية في ظلها يزداد عطاء الطالب واستيعابه، ويتنوع إسهامه وابتسامته مما يفضي إلى إنعاش الحصة وحيويتها . وذلك ما سنعرض له عبر نقطتين أولاهما تسعى إلى تأصيل هذا الأمر واستبانته في التراث الإسلامي، وثانيهما تتناول جهود الشناقطة في هذا الجانب :

أ - قيمة التلطيف في العملية التربوية

لا ينكر أحد قيمة المزاح وأهميته فهو دافع الإبتسام وباعثه، ومعلوم أن للتبسم أثرا كبيرا في الحياة الإنسانية، فهو ميزة الإنسان التي تميزه عن الحيوان، لذلك عرف بعض الفلاسفة الإنسان بأنه حيوان ضاحك أو مبتسم .والتبسم يؤلف مع العقل والكلام المميزات الثلاث التي يختص بها الكائن البشري دون جميع الكائنات الحية الأخرى إلا أنه يختلف عن العقل بعدم خضوعه لقانون التطور والنماء، وعن الكلام بطابعه الفطري [29].

[29] ابوها بن ماه :القبس الثاقب في بعض ماا لابن الما من المناقب(مخطوط، بحوزتنا)

والتبسم مبدأ يلجأ إليه الفرد للتخفيف من وطأة الضغوط المسلطة عليه من المحيط الخارجي فبقدر ما تخف تلك الضغوط يقوى الشعور بالراحة، والإطمئنان، وبقدر ما تشتد يفتر ذلك الشعور ليحل محل القلق والإشمئزاز [30].

وأكثر من ذلك فإن التبسم رمز للسكينة والوقار وآية الطمأنينة النفسية والإعتدال الخلقي لذلك كان من خلقه صلى الله عليه وسلم .وقد روى أنه كان يمازح أصحابه في جو من الأريحية والتلطيف والصدق، وفي الحديث :" إني أمزح ولا أقول إلا حقا"[31].

والحقيق بالتسطير هنا أن الدارس أثناء عملية التلقي يعرف ضغوطا خارجية، لذلك يصبح بحاجة ماسة إلى التخفيف من المعاناة عبر وسائل الترويح المختلفة كالمزاح والملاطفة وغيرهما .وفي هذه الحالة يحسن بالمربي أن يتوخى طريقة التنشيط التي يحل فيها الترغيب مكان الترهيب "ويفسح للدارس فيها مجال المشاركة في الحوار وإبداء الرأي، فيرتقي بفعل ذلك إلى منزلة قريبة من منزلة المدرس، ويخف الضغط على كليهما من الآخر"[32]. وتأكيدا على أهمية التشويق في عملية التدريس نسوق في هذا المقام شهادة أحد الخبراء الميدانيين المجربين الذين لهم قدم راسخة في جانب التربية والتدريس، فقد روى لنا تجربته الطويلة المصرحة بفاعلية التشويق في التدريس عموما ولا سيما تدريس اللغة العربية يقول :" حين أستقرئ تجربتي في التدريس وفي التحصيل اللتين تمتدان معا على خمسة وأربعين عاما لا أجد ذاكرتي احتفظت إلا بصور قليلة من (...) أساتذتي وزملائي في مادة العربية عرفوا بروحهم المرحة وميلهم إلى الدعابة داخل القسم" [33].

ب- عنصر التلطيف في الدرس المحظري

تحسن الإشارة هنا إلى أن العالم محمد مولود بن أحمد فال الموسوي [34] تعرض في منظومته

[30] محمد صالح بن عملر : كيف نعلم العربية، مرجع سابق ، ص.61.

[31] لم نتمكن من تخريجه وقد ؟أورده بن أحمد الحديم في شرحه لمحارم اللسان، وفي سنن الترميذي من حديث أب هريرة أنهم قالوا يارسول الله إنك تداعبنا ، قال : إني لا أقول إلا حقا : النووي(الأذكار .)143/

[32] محمد صالح بن عمر : كيف نعلم العربية، مرجع سابق، ص.61.

[33] المرجع السابق ،ص.36.

[34] هو مولود بن أحمد فال الموسوي اليعقوبي، من رواد حركة التأليف في البلاد، توفي1323 ه، من أه مؤلفاته كفاف المبتدئ، ومحارم اللسان ومطهرة القلوب.

التربوية الأخلاقية : ״محارم اللسان ״ للحد المقبول من المزاح منتهيا إلى أن الشرع حذر من الإكثار منه ورخص في قليله، وربما نذهب إليه في بعض الحالات إذ به تطيب الخواطر والنفوس، وتشيع الألفة والمودة بين الناس، وقد أوضح هذا العالم ذلك كله ضمن بيتين عطفهما بالواو على مجموعة من المحظورات اللسانية الواردة في الأبيات السابقة يقول [35] :

وكثرة المزاح إذ لا تومن عادة أن تنشأ عنها فتن

وعدم الهيبة أما يقل منه تألفا فندبه نقل

وفي شرحه لهذين البيتين ساق كلام جسوس الذي تناول فيه المزاح معددا أصنافه الممنوعة، مبينا مخاطره، ذاكرا بعض جوانبه الإيجابية منتهيا إلى بيان حكمه الشرعي يقول : ״قال جسوس : المزاح المنهى عنه ما كان فيه إفراط ودوام لأنه يورث ضحكا وقسوة قلب وشغلا عن الذكر وكثيرا ما يؤول لإيذاء أو سقوط هيبة فإن سلم من ذلك ندب كما ندر منه صلى الله عليه وسلم لمصلحة أو مؤانسة، فمن قدر على توقي الباطل وإبقاء المهابة حل له ومن لا فلا״[36]. وقد تعرض صاحب ״اللآلئ الحسان على محارم اللسان״ لشروط المزاح مبينا غايته والهدف منه يقول : ״شرط المزاح أن يقول بالصدق دون الكذب)...(واعلم أن اليسير منه في بعض الأحيان لا بأس به ولا سيما مع النساء والصبيان تطيبا لقلوبهم״ [37].

ويبدو أن أساتذة المحاظر أدركوا حاجة الطلبة الذين أرهقهم الاستذكار إلى شيء من التلطيف يفيد طبعهم المكدود بالجد راحة، فسعوا جهدهم إلى إشاعة جو من الأريحية والإمتاع في الحرم المحظري .فقد عمل الشيخ الشنقيطي على تحطيم كل الحواجز والاعتبارات الشكلية التي تفصل بينه وبين طلبته .وهكذا نجد شيخ الأساتذة يحظيه بن عبد الودود يداعب الطلبة بلطف فيعالج المريض ويلاطف الحزين ويؤانس الصغير بفتل الأذن وعرك الشعر .وبذلك كانت علاقاته بتلاميذه علاقة مودة وزمالة فهو يجلس معهم على أديم الأرض، ويجتمع معهم على مائدة واحدة

[35] شرح المؤلف محمد مولود لنظمه لمحارم اللسان، مخطوط.

[36] الشرح السابق.

[37] محمد الحسن بن أحمد الخديم : اللالئ الحسن على محارم اللسان، ص.37–36

[38] محمد بن يحي بن سيد أحمد : مجلة الوسيط، مرجع سابق ، ص.54.

فيأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون . وذلك ما أوضحه أحمد محمود(ممو)بقوله [38] :

كان لطالب العلوم يرحم لاسيما إذا اعتراه سقم

يؤنسه بعرك أذن وشعر وقد يضمه إليه فيسر

ولا يصون كتبه عن طالب وليس دون بابه من حاجب

وأكثر من ذلك نجد هذا الشيخ يستميل الطلبة نحو الدرس بأساليب ممتعة مؤثرة وعبارات شيقة ممازحة، وذلك ما أشار إليه اثنان من طلبته سجل كل على حدة أول لقاء جمعه به وما أعقبه في نفسيهما من عظيم الأثر وراسخ التأثير فأولهما محمدن بن حميدت[39] وقد أكد أنه قدم على الشيخ مع ثلاثة من أترابه، وفي أول حصة دراسية قربهم وقدمهم على غيرهم عسى أن يتذوقوا طعم العلم ويشتاقوا إلى المعرفة ويفطنوا إلى لذة الدرس فيمكثوا ولا يستعجلوا يقول التلميذ : ״قدمت على يحظيه أنا وثلاثة نفر والطلاب إذ ذاك كثر فالتفت״ وقال : ״سبكون ذو الخلطة الجايين من ساحل انفطنونهم لا ينكر اعلين״ [40] وقد تركت هذه العبارة الحسانية المؤثرة صدى طيبا في نفوس هذا الجمع الطلابي وجعلت منهم أئمة وعلماء وحملتهم على المكث والإقامة والجد والمثابرة . أما ثاني الطلاب فهو محمد عالي بن نعمة المجلسي [41] وقد وصف هو الآخر أول لقاء جمعه بالشيخ منتهيا إلى ذكر ما اكتنف هذا اللقاء من الإمتاع والمؤانسة وما صحبه من الأريحية والمزاج يقول : ״كان؟ يعني الشيخ –في سباحة صباحية يخرج مع الطلاب أثناء الدرس، وكنت عائدا من رعاية البقر)...(بادرني بالسلام وسألني في تودد ودعابة هل قرأت اللامية فرد أحد زملائي بأني قرأت الألفية فقال أباه–لقب الشيخ –ما زجا ليس هذا شيئا لم تقرأ اللامية وتظن أنك شخص لك قيمة״[42] . لقد ارتاح محمد عالي كثيرا لهذا الخطاب الممازح

[39] محمد بن حميدت التندغي–1316(ه1397–ه)عالم وأديب وشاعر له منظومات في النحو والفقه والتصوف كان شيخ محظرة.

[40] هذا التعبير رالحساني : سبكون : بكاف منعقدة بمعنوا قدموا، والخلطة : بمعنى الجماعة وانفطنونهم أي ننبههم، وجايين : قادمين، لاينكر اعلين معناه يتيهون ويضلون السبيل ويرجعون إلى أهلهم ، والعبارة معناها تشويق هؤلاء الطلاب حتى يطيب لهم المقام.

[41] محمد عال بن نعمه المجلسي(ت1409ه)عالم جليل وشيخ محظرة أخذ عن الشيخ يحظيه بن عبد الودود وتأثر بمنهجه التدريسي كثيرا، قيل أنه كان نسخة طبق الأصل منه.

[42] أحمد بن محمد : آثار العلامة يحظيه بن عبد الودود، المعهد العالي1997 ،ص.35

المتميز رغم ما يحمل في طياته من نغمات العتاب ولذعات النقد. وبالفعل كانت هذه الحادثة بداية تعلق التلميذ بالشيخ وإعجابه بمنهجه وأسلوبه.

ومن خلال هذين اللقاءين ندرك أن الشيخ الشنقيطي حريص من أول حصة على أن يزيح نسيج الرعب والخوف ويزيل حاجز الحذر والتحفظ فيزداد التلميذ بذلك شوقا إلى العلم وثقة بالأستاذ.

والشيء الذي لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا في هذا المقام، هو عدم الإفراط في اعتماد المفاكهة والتنكيت، فالإكثار منها يورث الاحتقار، وربما عصف بالهيبة والوقار، أو نسف كل قيمة واعتبار.

وبالجملة فإن التشويق القولي بوجهيه البياني والابتسامي يعتبر آلية تربوية لا غنى عنها في عالم التدريس فهي تشد أذهان الطلاب إلى الدرس وتحملهم على الجد والمثابرة وندعوهم إلى الانتباه والاجتهاد، وأكثر من ذلك تتيح لهم جوا من الإمتاع والمؤانسة، ومناخا من الأريحية والاطمئنان. غير أننا في هذا السبيل ينبغي أن لا نفرط في اعتماد وسائل التشويق والإكثار منها، حتى لا تصبح عنصرا سلبيا .فلنأخذ منها بمقدار ولننظر إليها على أنها مجرد إدام أو ملح للطعام .